الراوي والمنظور السردي – رواية "حدث أبوهريرة قال ..."
لمحمود المسعدي أنموذجا

أ.مســـعودة قطش
(جامعة 20 أوت 1955–سكيكدة)

المـــــلخص

يشتغل الروائي التونسي **محمود المسعدي** كثيرا على التراث العربي وخاصة السردي منه. وبهدا ينفتح على عوالم سردية تخييلية ينهل من معينها في جوانب عديدة تتعلق بالتقنيات أو المضامين. وفي هده الدراسة التي تتناول العمل القصصي **"حدث ابو هريرة قال..."** يظهر تأثر المبدع بدءا من العنوان بالحديث النبوي الشريف . وهدا التأثر لا يقف عند الشكل وإنما يتعداه إلى المضمون.

تميز الحديث النبوي بتقنية الإسناد وقد استلهم المسعدي هده التقنية ووظفها في عمله فكان العمل عن مجموعة أحاديث يختلف رواتها وقد ركزت في دراستي على الراوي من اجل فهم الآلية التي تعرض بواسطتها الأحداث وهدا الإدراك يساعدنا في رصد الأبعاد الدلالية للنص.

***Résumé* :**

Le rommancier tunisien Mahmoud El Messaadi travaille énormément sur le patrimoine arabe et notamment le patrimoine narratif. Il s'ouvre de la sorte sur des univers narratifs imaginaires d'où il puise techniques et contenus. Dans cette présente étude qui traite de laa nouvelle intitulée « Abou Hourraîra a dit » ou bien « Hadatha Abou Hourraîra kal … » apparait d'influence du hadith sur le romancier sur les deux plans : contenant et contenu.

Le hadith s'est distingué par la technique d'EL ISNAD (liste d'autorits rapportant un hadith) utilisée par El Messaadi dans sa nouvelle, exploitant plusieurs hadiths dont les narrateurs étaient différents. Je me suis focalisée donc sur le narrateur afin de déceler et comprendre la technique utilisée dans l'exposition des evenements, cette conception aidera sans doute dans l'appréension des diverses dimentions sémantiques du texte.

المنظور السردي

كما أن الدراسة الزمنية تحتل موقعا هاما في إطار دراسة المحكيات الأدبية فإن وجهة النظر أو المنظور السردي (la perspective narrative) هو الآخر يعد مظهرا هاما من الدراسات السردية.

ذلك أنه ينبغي على القارئ أن يتعرف إلى الجهة التي تتبنى عرض أحداث القصة و هذا وفق منظورها الخاص، إن كانت متمثلة في إحدى الشخصيات، أم أن الرؤية محايدة حيث يقدم الراوي الأحداث وفق المنظور (الرؤيا) الذي يمكن أن يحتويه نص سردي ،لذا فان السؤال الذي يحضرنا عادة عند قراءتنا لرواية ما، من الشخصية التي ندرك بواسطتها الأحداث هل هي شخصية حكائية، وما هي الطريقة التي أدركت بها الأحداث ثم قامت بعرضها علينا ؟

ونتساءل أيضا عن إمكانية تأطير تلك الرؤى الموجودة داخل النص وإعطائها تصورا إيديولوجيا خارج النص ؟

نعني بمصطلح وجهة النظر أو الرؤية (la vision) أو (la focalisation)
كما اصطلح عليه جيرار جينيت "المنظور السردي المعتمد من قبل الراوي في العرض للأحداث المنقولة بواسطة المحكي الأدبي".[1]

وقد اعتمد تودوروف في مقاله المعنون بـــ:

« les catégories du récit littéraire » مصطلح (les aspects du récit)" مظاهر المحكي " للتعبير عن وجهة النظر، و قد أورد تصنيفا لجون بويون، حيث رأى أن الإدراك الداخلي للمحكي يتم وفق ثلاث مظاهر (أنواع) من الرؤى :

1- الراوي >الشخصية (الرؤية من الخلف) la vision par derrière :

وهذا النوع من الرؤية تعثر عليه كثيرا في المحكيات الكلاسيكية، و تكون معرفة الراوي أكبر من معارف كل الشخصيات، لأنه يطلع على أفكار و أسرار الشخصيات وعلى الرغبات السرية لها[2]، و الراوي لا ينشغل بأن يشرح لنا كيف تحصل على تلك المعرفة، و الراوي يراقب كل الأحداث و هو يرسل القصة من وجهة نظر عليا ونسمي هذه الحالة بالراوي العليم «Le narrateur omniscient»

إن هذا الأسلوب يتيح للراوي الاختصار في تقديم بعض الأحداث أو الأوصاف حول الشخصيات وإعطاء فكرة عامة عن الأحداث التي ستواجه القارئ فيما بعد أو التنبؤ بما سوف يكون في المستقبل .

2-الراوي = الشخصية (الرؤية مع la vision avec)

نجد هذا النوع في روايات العصر الحديث ، و الراوي لا يعرف أكثر مما تعرفه الشخصيات و لا يستطيع أن يعطي تفسيرا للأحداث دون أن تتوصل هي إليه ويمكن للراوي أن يتبنى المنظور الروائي لعدة شخصيات حكائية بالتناوب .

3 – الراوي<الشخصية: (الرؤية من الخارج la vision par dehors):

في هذه الحالة يعرف الراوي أقل مما تعرفه أي شخصية من شخصيات الرواية فهو يصف ما يرى و يسمع فقط،و لا يمكنه التدخل في أي إدراك[3].

والراوي يعتمد على الوصف المادي و الحسي للأشياء، و هذا النوع من الرؤية لا نعثر عليه كثيرا في الروايات، لأن الراوي لا يمكنه أن يعتمد في سرده على الوصف الحسي للشخصيات ولكافة مكونات العالم الروائي، دون أن يغوص في المستويات الداخلية خاصة بالنسبة للشخصيات. ويترجم المنظور السردي دائما العلاقة بين الراوي والشخصية انطلاقا من علاقتهم بالمعرفة، أي بكم المعلومات المرسلة عبر الخطاب، وهذه العلاقة يمكن أن تكون من ثلاثة أنماط:

- الراوي العارف بكل شيء .
- الراوي المتساوي المعرفة مع الشخصية.
- الراوي الذي يعرف أقل من الشخصية[4].

وقد احتوت الدراسات السردية التي قامت حول الراوي خلطا كبيرا فيما يتعلق بالتمييز بين ذات التلفظ السردي و ذات الإدراك. ذلك أن الذي يتكلم في المحكي هو صوت نسمعه، صادر عن الذات، تختلف علاقتها بالأحداث من حيث مشاركتها فيها أو عدمها. وهي ليست بالضرورة الذات التي تتكفل بالأحداث وفق وجهة نظرها .

هناك من رأى أن تحديد ذات الإدراك في النص السردي يتم عن طريق تحديد ثلاث عوامل: يتعلق العامل الأول بالموقع الذي تأخذه في إطار المحكي عامة. أما العامل الثاني فيتمثل في الجهة التي تتخذها في علاقتها بالأحداث والشخصيات، وآخر هذه العوامل هو المسافة بينهما وبين الشخصيات من جهة و بينها وبين المؤلف من جهة أخرى[5].

ويتعلق مفهوم وجهة النظر بالروي و علاقته بالشخصيات إن كان يقدم الأحداث وفق منظور شخصية حكائية، كما يتعلق بالمروي له من حيث أن الراوي يقدم المحتوى الحكائي آخذا بعين الاعتبار أنه يمكن أقامة علاقة بالمروي له تقوم على أساس طريقته في العرض. وطريقة المروي له في الإدراك و التلقي.

لقد أورد واين بوث "Wayne Booth" في مقال له مترجم إلى الفرنسية بعنوان: (distance et point de vue) تمييزا بين كل من المؤلف و القارئ و الشخصيات والراوي على أساس العلاقات التي يمكن أن تجمع بين كل منها في إطار المحكي.

ولقد ميز بين المؤلف الضمني (L'auteur implicite) والراوي المقدم أو العارض الأحداث (Narrateur représenté) والراوي غير المقدم أو غير العارض للأحداث (Narrateur non représenté) فتميزه بني على أساس الرؤية المتبناة في عرض الأحداث. هل تعود إلى المؤلف الضمني أو إحدى الشخصيات، أم أنها رؤية محايدة؟

أما جيرار جنيت فقد اقترح مصطلحا جديدا للتعبير عن الرؤية في العمل السردي هو مصطلح التبئير(la focalisation) لأنه رآه أكثر تجديدا، و يقترب من المصطلح الذي تبناه يور وكس و وارين " بؤرة السرد" و رأى بأن التبئير يتعلق بالمعرفة أو الإدراك الذي يتوفر عليه إطار السرد من العالم المروي ، و يحدد جنيت انطلاقا من وجهة النظر المتبناة في عرض المحكي ثلاثة أنماط منه هي:

1- المحكي غير المبأر Récit non focalisé : وهو الممثل في الروايات الكلاسيكية.

2- المحكي ذو التبئير الداخلي: Le Récit à focalisation interne حيث يمكن أن تتبنى رؤية عدد من الشخصيات، كما هو الشأن في الروايات التراسلية.

3- المحكي ذو التبئير الخارجي Le Récit à focalisation externe : وقد شاع هذا النمط من المحكيات فيما بين الحربين العالميتين عن طريق روايات داشيال هامت، ولا يمكن أن نطلع فيها على أفكار البطل وأحاسيسه[6].

كما يرى جنيت أن التبئير يمكن أن يكون ثابتا على شخصية واحدة، كما يمكن أن يتغير على أكثر من شخصية داخل المحكي، فهو يمكن أن يكون خارجيا في بداية المحكي، ثم يتحول إلى تبئير داخلي في أثناء السرد[7].

والمبئر هو الشخص الذي يعرض المحكي من خلال إدراكه الحسي والمفهومي ذلك أن الأحداث تدور بعيدا عن أعيننا. ونحن لا ندركها إلا عن طريق ذلك الشخص

الذي يتكفل بعرضها علينا. ومنه فإن إدراكنا للمحكي بجميع مكوناته هو إدراك من الثاني[8].

والراوي بذلك يظهر في المحكي في هيئة الراوي العليم الذي له القدرة على الإطلاع على العوامل الداخلية للشخصيات، كما يمكن أن يكون الراوي محايدا في عرض الأحداث، ويحدث هذا عندما يحاول الاكتفاء بممارسة عملية نقل كلام الشخصيات وحواراتها كما هي دون التعليق أو الشرح أو التأويل.

كذلك من خلال تقديم وعرض الأحداث، كما يمكن أن تكون قد التقطتها عين الكاميرا دون وضع أي رتوش عليها، وهذا بالاعتماد كثيرا على الوصف والعلاقة بين الراوي والشخصيات تحددها المسافة (La distance) التي يتخذها الراوي بينه وبين الشخصية الحكائية ويمكن أن تتغير هذه المسافة عند أي نقطة في المحكي، وهذا عندما يتخلى الراوي عن الرواية وفق منظور شخصية معينة، لتبني المنظور السردي لشخصية أخرى.

وترتبط الرؤية داخل النص السردي أيضا بالصيغة المتبعة في عرض الأحداث، لأن الراوي يختار الطريقة التي يقدم بها محكية بمراعاة الجهة التي اتخذها من أجل رصد الأحداث، حيث أنه عندما يكون الراوي عليما، أي أن الرؤية تكون من الخلف، يوظف ضمير الغائب في سرد الوقائع وهكذا يستطيع الحديث عن كل تفاصيل العالم المروي، وفي طريقه يتحدث عن الشخصيات، بوصفها من الخارج والداخل، كما أن استعمال هذا الضمير ينتج له إيراد التوقعات والتنبؤات وعرض أقوال الشخصيات على لسانه لذلك فإن الراوي يكون سردا ذاتيا كما ذهب إلى ذلك تودورف عندما قسم صيغ السرد إلى نوعين:

1- السرد La narration: وهو متعلق بالقصة كمتن من الأحداث[9]، يجري سردها ونقلها عبر خطاب الراوي.

2- العرض: La représentation: وهو الأسلوب الغالب في الأنواع الدرامية حيث يتم عرض الأحداث كما لو أنها تجري أمام أعيننا[10]. وهذا ما يوافق الأسلوب المسرحي. وعندما يكون المنظور السردى المتبنى في عرض الأحداث هو منظور الشخصية فإن الراوي يتبنى ضمير المتكلم في السرد. لأنه يتيح له الرؤية وفق وجهة نظر الشخصية فيظهر لنا في المحكي وكأن الشخصية هي التي تتكلم فلا يستطيع الراوي أن يعطي تفسيرا لما تتوصل إليه الشخصية نفسها، وتكون الشخصية الرائية في هذه الحالة متمثلة في البطل، والسرد يكتسي بطابع مصداقي[11]. كما يمكن للراوي أن يتبني ضمير المتكلم في حالة "الرؤية مع"، عندما يتخذ كمنظور سردي رؤية إحدى الشخصيات الثانوية، التي تشهد على الأحداث والتي ترويها دون أن تتدخل بالتعليق عليها وتكون بذلك رؤية الشخصية محدودة بما تراه وتسمعه وتدركه[12].

لقد أفضى التعدد الرهيب في "حدث أبو هريرة قال ...." على مستوى الأحداث والمتحدثين داخل الحديث الواحد إلى تعدد الرؤى ووجهات النظر. فقد يختار الراوي أن يكون رائيا. كما يمكن أن يأخذ برؤية شخصية حكائية، وقد يزاوج بين رؤيته ورؤيتها في عرض الأحداث.

في "حديث الحكمة" يكون الراوي أبو هريرة رائيا لأنه يتحدث عن نفسه، فنتعرف على ما يدور بداخله من أفكار وخواطر، يرويها بضمير الغائب ولذلك فأبو هريرة هنا بمثابة الراوي والمبئر للحديث في آن واحد.

وأبو هريرة لا يقدم وصفا خارجيا باعتباره موضوع الحديث، ولكنه يتحدث عن نفسه ناظرا إليها من الداخل. غائصا في سرائرها "وكان قد بدأني الشك فكنت أقبل على الشيء أو الأمر فلا يملكني إلا ساعة، ثم يغور همي فيه وتنصرف نفسي إلى غيره. ثم أزداد فكنت لا أكاد أهم بالشيء حتى يسقط همي، فكأن العزم ذوب شتات لا يجتمع لي..."[13].

نتلقى المعارف في هذا الحديث وفق وجهة نظر أبي هريرة، وهو ما مكن للشخصية من أن تحفل بأوصاف عدة تترجم عن حالتها النفسية وهيأتها الظاهرة، لا نلمح من الشخصية عادة إلا الباهت من أوصافها، وما عدا ذلك فهو موكول للاستخلاص من مستويات الحوار، والمعلومات التي تتحصل عليها لا تعرف بهوية الشخصية زمانها ومكانها وعاداتها إلا ما أفاد في تجريدها، وبهذا فإن طريقة عرض الشخصية وتصويرها تتجاوز هذه التقنية لتصبح في حد ذاتها وسيلة لخدمة البعد الذهني للرواية[14].

ونتعرف على شخصية ثانية هي شخصية أبي رغال عن طريق رواية أبي هريرة، وقد تضمنت هذه الرواية وصفا مقتضيا للمظهر الخارجي لها "وإني لفوق البحر يوما على جبل مشرف إذ جاء رجل كالناسك فجلس بقربي وهو مطرق ساكن كالبيت الحرام، فأقبلت عليه أتأمله فإذا هو في عظمة الفيل وعليه سمة الحكمة والجلال"[15].

إن هذا الوصف يجعلنا نتخيل أبا رغال كما نظر إليه أبو هريرة، وكما رسم له صورة حسية ومعنوية في ذهنه وقام بنقلها إلينا بواسطة الكلام.

وقد تضمن الحديث إلى جانب الوصف أيضا الحوار الذي دار بين أبي رغال وأبي هريرة والذي استطاع الراوي من خلاله أن يقدم عددا من الأحداث والوقائع تخص حياة أبي رغال لذلك فإن أبا رغال هو الذي يتكفل بالسرد وفق منظوره الخاص

فهو راو مشارك في قصته باعتباره البطل، كما أنه يمثل الشخصية الروائية والتي يتم الإدراك وفق وجهة نظرها الخاصة.

وأبو هريرة يقوم بنقل هذا الكلام المبأر على أبي رغال. كما جاء على لسانه في شكل سرد حواري: "فقلت ما خبرك وما شأنك على هذا البحر؟.

قال شأن كلا شأن. فيم السؤال؟

إن السؤال من علل الإنسان. أتحب القصص؟

قلت: نعم. قال: وتفهمها؟

قلت: لا أدري.

قال: فهي قصة الحكمة وأنا قاصها عليك..."[16].

ويمكن أن نعتبر في هذه الحالة أبا هريرة بمثابة الراوي المحايد الذي تقتصر وظيفته على النقل لما يسمعه و يراه دون أن يحاول إبداء رأيه فيه أو أن يخضعه لأرائه الخاصة، ويتبين ذلك جليا من خلال نقل الكلام بما تضمنه من أوصاف، نعت بها أبا رغال قومه، أو آراء أصدرها في شأنهم:"قلت: نخرج الخير من الشر والشر من الخير، أو نمحو الخير والشر معا. فإذا هم عقام. وقالوا: مننت بحقن الدمار وإسكان الروع. وهو مردود عليك يوم الحساب. فقلت: دينكم كأنكر صنيع اليهود، حساب في حساب. ثم أمرت، فحلقت لحاهم ورؤوسهم حتى صارت كالعنصل"[17].

لقد تعددت الشخصيات الروائية في "حدث أبو هريرة قال..."، واختلفت في نفس الوقت علاقتها بالأحداث وبالشخصية المحورية أبو هريرة. ومن الملاحظات التي يجب سوقها إذا ما تحدثنا عن بقية الشخصيات وخصوصا ريحانة، أن جل الشخصيات لا يمكن التحدث عنها إلا باعتبارها صدى لأبي هريرة تعكس وجهة

نظرها سواء اتفقت معه أو لم تتفق لأن أفكار أبي هريرة ورؤيته للكون والحياة عادة ما تعرف من خلال الحالات النقيضة لها[18].

وهو ما يتضح جليا في حديث الحس الذي ترويه ريحانة والذي يتضمن جزءا من تجربة الحس، فكانت ريحانة بمثابة القناة التي استخدمها الراوي لعرض وشرح ما يدور في فكر ونفس أبي هريرة "إني أجد في جسدي وهو عليل كيف يرق حتى كأنه عود فلما حبسته أنّ. وكيف تدق الحاسة وتحتد، وقد ذهبت لي والله ساعات وأنا أقفو أثر الروح تنتقل من يدي إلى رأسي أو منه إلى صدري، وتتردد على الأعضاء والقلب والأمعاء تردد الفجر، فكأني أسبح في دمي يجري ولذ عندي، فيلذ عني الألم في كتفي أو صدري أو رأسي، فأنا آكل حنظلا لا كحنظل الناس"[19].

ثم يقول في شان المرض " آلمني أن يكون نصف متاع الدنيا في حال لا يصيبها الإنسان إلا حينا بعد حين ، إذا سلم من كثافة الصحة "[20].

وريحانة لا تعلق بعد هذا على أقوال أبي هريرة فهي بمثابة العاكس لما تسمعه و تراه فقط.

وفي حديث البعث الأول يورد الراوي كلام أبي هريرة عن نفسه، كيف جاءه صديق و أخذه لمشاهدة منظر لفتاة وفتى يرقصان تحت أشعة الشمس.

والراوي من خلال حديث أبي هريرة يقدم لنا صورة عن ماضي هذه الشخصية التي كانت تعيش حياة عادية، تؤدي الصلوات في أوقاتها، مخلقة بالقيم الموروثة لا ترى في الجسد إلا قبحا ينبغي ستره "فقمت و أنا استغفر الله و أصلح من ثيابي "[21].

والراوي يواصل عرض حديث أبي هريرة باستعمال ضمير المتكلم " ثم خرجنا من مكة وانصرفنا عن طريق القوافل"[22].

وهكذا يتبع أبو هريرة صديقه الذي يحمله على الصعود في كثيب من الرمال و هناك يتبين صورة الشبحين، فيتأكد له بأنهما فتاة وفتى في زي آدم وحواء و يتفاجأ بهما وهما على هيأتهما تلك ويدقق في وصف الفتاة وهي ترقص، فيرسم لنا بذلك صورة حسية بواسطة الألفاظ " فرأيتها لسانا من الرمل قائما على رأس الكثيب، و كأنها ولدت منه أو ذابت فيه، فهي رقيق الرمل يجري بين الأصابع و أرسلت إلى ذلك صوتها بالغناء. فكان يترقرق في حلقها، ويرق لرنين يديها وثدييها وكامل جسدها، ثم يتراجع بتراجعه حتى أخاله سكن"[23].

ثم يستمع أبو هريرة إلى قصة الفتاة والفتى من صديقه الذي لا يذكر له اسما مطلقا ويعود إلى مكة في الحال غير الحال التي كان عليها " و يهتز كيان أبي هريرة فلا يتردد إلا قليلا ويستجيب للدعوة، فيترك مكة والصلاة و قد بعث من بين الموات و يبدو من هنا أن حياة أبي هريرة قد اتخذت منعرجا أولا "[24].

وفي حديث الوضع يروي أبو سعد عن ريحانة وقائع تجربتها الحسية مع أبي هريرة، لذلك فإن أبا سعد هو راو مشارك في القصة و هو لا يتدخل في طريقة عرض الأحداث أو في كيفية إدراكها، لأنه يعيد التلفظ بما كانت قد تلفظت به ريحانة له في زمن سابق، فالحديث مقدم وفق رؤية ريحانة التي عايشت أحداثه.

وتستعرض ريحانة مراحل هذه التجربة واصفة حال أبي هريرة إذا جاء الطعام «وكان كلما أتى الطعام أخذه خشوع غريب. وسمعته يقول والشواء يتقاطر بين يديه: ما أعظم الشواء يستحيل إلى دمي. ثم تأمله طويلا و قال: هاته مع الدنيا "[25]. وتصفه وهو سعيد منشرح الصدر " فاسمعه يهازلني و يضحك وعليه سمة الفرح و الحياة"[26].

ويحدث أن يروي أبو هريرة لريحانة قصة تعرفها على جارية بجوار الكعبة، اشتاق لها وتاق للقائها لكنه تفاجأ عند رؤيتها لأنه وجدها صماء بكماء، لم تع ما قاله فيها من شعر، وقد عرض أبو هريرة هذه القصة محذرا ريحانة أن تكون صماء لا تعي.

ولقد كانت ريحانة قبل لقائها بأبي هريرة تعاني ضياعا و لكنها عند معاشرتها لأبي هريرة تغير كل شيء في نظرها، فهي لم تحصل فقط على حريتها و ردت عليها نفسها بل وكذلك تجلى إليها الكون في صفاء كامل بعدما كان لا يظهر إليها إلا غائما معتما[27].فتجدها تعبر عن ذلك وتقول:"وكنت أصبت من معاشرته ما صار لي به كل شيء وضاحا، وتبرجت لي به الدنيا تبرجا أكثر النفس، حتى شرب المفرد العدد ورأيتني نورا مشاعا"[28].

لقد وجدت ريحانة في أبي هريرة الماء الذي يروي ظمأها والدواء الذي يرمم جراحها والطمأنينة التي تملأ كيانها، فكشفت عن رضاها وقناعتها بالعيش إلى جانبه،فقال:"ما أحسن دنياك يا ريحانة ؟ قلت: إن تجتمع فيك ولا حصر"[29].

فكان ذلك سببا في ترك أبي هريرة لها، و رحيله عنها، لأنه رآها قاصرة على أن تواكب نوازع نفسه المتطلعة دائما، وبذلك أدرك أن ظهور المرأة في حياته لم يخدم حب التطلع في ذاته بقدر ما خدم نوازع اللذة في نفسها، و أنها لذلك قاصرة عن فهم غايته من الوجود، فسعت إلى مسخ مسيرته و توجيهها في خط مستقيم واضح اتجاهه ، يسير سلوكه. لذلك قرر الرحيل واضعا إياها كما تضع الحامل المعسر، و نغص بذهابه ما جاء به عليها من الدنيا، و ختمت ريحانة حديثها متحسرة تقول: " رحم الله أبا هريرة "[30].

إذا كانت تجربة الحس قد قدمت في الرواية وفق منظور ريحانة التي كانت طرفا رئيسا فيها، فان التجربة الدينية قد قامت بروايتها ظلمة الهذلية التي شاركت هي الأخرى في حياكة وقائعها رفقة أبا هريرة.

ويأتي في بداية الحديث صوت الراوي مكين بن قيمة السعدي الذي يروي عن هشام ابن أبي صفرة الهذلي خبر ظلمة التي تنصرت و دخلت دير العذارى" وكانت مع حر جمالها نفورا شرودا تأبى الأنوثة و تتصنع طبائع الرجال. فلما بلغت من السن ما يطغى فيه الدم و يفيض الماء، تمردت و دخلت دير العذارى"[31].

ويواصل الراوي سرد قصة ظلمة قائلا: " فهي به إذ نزل بهم أبا هريرة. فأقام فيهم زمنا ثم انصرفا معا و قد ارتدت و فجرت فأمعنت في ذلك، و لم يكن فجورا كفجورها نية و معنى"[32].

وبذلك يكون الراوي قد عرض القصة باقتضاب مبديا رأيه في ما وقع لظلمة مع أبي هريرة حيمنا وصف ذلك بالفجور، و بغرض التفصيل في القصة قدم الراوي الأحداث مفصلة على لسان ظلمة كما روتها:"قال: حدثتني ظلمة قالت..."[33].

وبذلك تبنى الراوي رؤيتها ليتسلل إلى عالم الأحداث ويتمكن من عرضها بدقة دون إهمال أي تفصيل مهما كان شأنه، ومن أجل نقل إحساس الشخصية بالحدث و بالشخصيات الأخرى كما يفترض أن يكون، لذلك اعتمد السرد بضمير المتكلم و هذا من أجل إضفاء الصبغة الذاتية على الملفوظ السردي، تقول ظلمة: " أول عهدي بأبي هريرة يوم طرق علينا الدير. وكنت صاحبة مفتاح، ففتحت له و سألته ما حاجته. فقال حاجة الفأر الملتجئ. فحسبته متزهدا مترهبا فقال وأشار إلى ظله: هروبي من هذا. فرأيته يلوح إلى ذنوب اعتلقت به"[34].

إن المنظار الذي تنقل بواسطتها الأحداث هو تلك الشخصية ظلمة التي تسرد الأحداث وتقدم الشروحات وتفضي بما يدور في ذهنها من أفكار، وفي نفسها من خواطر، فنحن لا يمكننا أن نعرف أو ندرك أمرا ما لم تتلفظ به هذه الشخصية.

ولقد روت ظلمة هذه التجربة بكل حيثياتها، ومن خلال وصفها لأبي هريرة نجد أنه قد تنزل لها في مظهرين متناقضين: ايجابي و سلبي فقد تراءى لها جميلا، ضاو المحيا واضحه ووجدت لثيابه ريحا هزت كيانها و بعثت فيه الشوق إلى الدنيا، لكنها وجدت إلى جانب ذلك غرابة في خلقه عندما بادرها بالسؤال: "أريد أن أعرف أيهما أصدق وجود الله أم الشيطان"[35]. ثم قوله:" أريد أن أعرف أنا خالق الله أم الله خالقي"[36]. فأحست ظلمة منه الكفر ونهته عن ذلك.ثم أجهدت نفسها في تعليمه الأدعية والإخلاص، و أبو هريرة لا يتوانى عن طرح الأسئلة:" كيف تتخلصون من الأجساد والأرواح؟ قلت: نمزقها تمزيقا حتى ننسى الألم"[37].

وهكذا يختلي أبو هريرة بنفسه معذبا إياها بالجوع والصوم، لكنه لا يلبث أن يخرج من عزلته و يقتلع ظلمة من ديرها محببا لها الدنيا، فزعا لهذا الإيمان القاتل لطبيعة الجسد وطبيعة الحياة... إيمان التعطيل والموت. تقول ظلمة:"فقلت و قد أخرجتني. فإذا للجسد مس الجديد المعاد الخلق فلم يقل شيئا و ضمني إليه... ثم هبطنا الأرض"[38].

وهكذا اتخذت الأسانيد التقليدية كزوايا نظر، ينظر من خلالها إلى النص، باعتبارها تتضمن أسماء رواة كانت لهم علاقة بالبطل أبي هريرة من قريب أو من بعيد، و هذا بغاية تكثيف الأضواء على الحدث إثراء للموضوع و إجلاء للرؤيا[39].

ويتجلى هذا الأمر في معظم الأحاديث التي تضمنت راويا أو أكثر في السند غالبا ما كانت علاقته بأبي هريرة بعيدة، وراويا في المتن يكون مشاركا مع أبي هريرة في

الأحداث،كما هو في الشأن مع كل من: ريحانة في حديث الحس و ظلمة في حديث" الغيبة تطلب فلا تدرك" و أبي المدائن في حديث القيامة وحديث البعث الآخر. أما باقي الرواة الذين اقتصر ذكرهم قي أسانيد الأحاديث فقد كانوا مجرد ناقلين للأخبار على لسان رواة آخرين عاصروها و شاركوا فيها، كما هو الشأن بالنسبة لأبي عبيدة و ثابت القيسي و مكين بن قيمة السعدي و أبي إسحاق عمرو بن زيادة السعدي. إلى جانب ذلك هناك رواة لأحاديث أوردت أوصاف أبي هريرة في بعض مراحله الانتقالية التي كانت تتوسط بين تجربة وأخرى، و هو ما نجده عند حرب بن سليمان في حديث الحمل و أبو عبيدة وهشام بن حارثة في حديث الجماعة و الوحشة التي تضمن وصفا لما آل إليه أبو هريرة بعد فشله في تجربة الجماعة.

وتبدو الأحاديث في الرواية أدق تركيبا و أكثر تشعبا، و كأنما تريد بتشعبها هذا أن تدل على خصائص شخصية البطل أبو هريرة المتعددة المتكاثرة التي يختلف فيها الرواة تارة ويتفقون بشأنها في بعض الأحايين[40]، و كان الرواة واختلاف وجهات النظر التقنية التي سلطت الضوء على جوانب عدةمن هذه الشخصية المتفردة، وفتحت الباب أمامها من أجل تقديم آرائها في مختلف الموضوعات، وهو ما نلاحظه في حديث الغيبة تطلب فلا تدرك عندما يشرح أبو هريرة لظلمة وفق منظوره تصوره حول أولئك الرهبان ومذهبهم في الإيمان والعبادة.

أشكال عرض و تقديم الخطاب :

يقوم الخطاب السردي على عدة من الملفوظات، يعود بعضها إلى الراوي والبعض الآخر هو عبارة عن كلام الشخصيات الحكائية، والراوي ليس هو المتكلم الوحيد إذ تشاركه الشخصيات الكلام، وهو الذي يورد كلامها ويختار الأسلوب المناسب

لنقله، لذلك يحتل خطابه الناقل المستوى الأولي من القص في حين يقع خطابها في المستوى الثاني منه، وخطاب الشخصيات يكون إما داخليا أو منطوقا، ولكن الراوي ينقل دربيه إما مباشرة أو بصفة غير مباشرة[41] .

وفي إطار حديث جنيت عن الصيغة رأى بأن المرء يستطيع أن يروي كثيرا أو قليلا مما يروى. و أن يرويه من وجهة النظر هذه أو تلك، و هذه القدر وأشكال ممارستها بالضبط ما تشير له الصيغة السردية[42].

والراوي إذن هو المتحكم في طريقة صياغة الأخبار والأقوال و تقديمها في إطار المحكي لذلك يمكن أن نميز بين رواية الأحداث و رواية الأقوال، و قد حد جينيت ثلاث حالات يمكن أن يرد عليها خطاب الشخصيات المصرح به أو الداخلي، هي كالتالي:

•الخطاب المسرد : Discours narrativisé

وهو الذي يعتبره الراوي حدثا من بين أحداث أخرى يضطلع به هو بنفسه بصفته كذلك. وهذا الخطاب يتضمن في الأصل أقوال الشخصيات ينقلها الراوي دون المحافظة على الشكل الأصلي الذي جاءت عليه في القصة.

• الخطاب المحول " Discours transposé ":

هذا الخطاب لا يقدم حسب رأي جينيت أية ضمانة للقارئ بالأمانة الحرفية الأقوال المصرح بها في الواقع، و حضور الراوي فيه أكثر تجليا في تركيب الجملة، و هو لا ينقل الأقوال إلى جمل صغرى تابعة، بل يكثفها و يدمجها في خطابه الخاص و يخضعها لأسلوبه[43].

•الخطاب المنقول " Discours rapporté ":

وهو أكثر الأشكال السردية محاكاة، حيث يتظاهر الراوي بإعطاء الكلمة للشخصية[44].

ويتجلى هذا النمط السردي في الأسلوب المشهدي الذي يتخلل العمل السردي حينما يتنازل الراوي تماما عن الكلام لصالح الشخصية.

يعمل الراوي في "حدث أبو هريرة قال..." منذ البداية على إعطاء و منح الكلمة للشخصية التي يذكر اسمها على مستوى السند من أجل الاضطلاع برواية ملفوظ الحديث، وهو بذلك يمنحها الحرية في أن تعرض الأحداث على لسانها سواء تعلقت بشخص أبي هريرة أو بها (الشخصية الراوية) وقد اعتمد الراوي طريقة وظفها في جميع أحاديث الرواية البالغ عددها اثنين وعشرين حديثا، تمثلت في السند والمتن والمستمدة من التراث العربي، حيث كان العرب يبتدئون سردهم عن طريق عبارة زعموا التي وظفها ابن المقفع في" كليلة ودمنة" والصيغة الفعلية حدثنا التي افتتح بها بديع الزمان الهمذاني معظم مقاماته. و كلها كانت تحيل على الراوي سواء كان ظاهرا أو مضمرا.

وفي الرواية نجد أن معظم الأحاديث ابتدأت بعبارة " حدث ... قال" والمتضمنة لفعلين أحدهما يحيل على الحديث من حيث إنه ملفوظ أنتجه متلفظ له اسم معين والفعل الآخر"قال" يحيل على مضمون الحديث باعتباره حديثا منقولا عن الراوي كما تلفظ به. وكلا من الفعلين يدلان على أن الوقائع جرت في زمن سابق عن زمن التلفظ.

إن هذه الصياغة التي جاءت عليها الرواية قد نهلت من أشكال الرواية القديمة في أعرق صورها و أقدسها متمثلة في الحديث النبوي كقالب فني، شكل في تراث

العرب أداة تواصل وتبليغ، فهو تواصل بحكم أنه وسيلة من وسائل نقل الخبر في صورة من القص بليغة ومتينة ومؤكدة في سياق ما يعرض من أسانيد[45].

وقد ركز الراوي واعتني بذكر اسم الشخصية التي ستروى مضمون الحكاية كما أنه يدقق في ذكر أنسابها أو بعض من صفاتها مثل ما نرى في حديث الغيبة تطلب فلا تدرك، حيث يوجد راويان هما مكين بن قيمة السعدي وهشام بن أبي صفرة الهذلي، و في حديث العمى يكون الراوي أبو إسحاق عمرو بن زيادة السعدي.

فهو إلى جانب ذكر السبب لا ينسى أن يذكر كنية الشخصية، كل هذا سعيا من أجل توثيق الأخبار التي سترد ضمن ملفوظ الحديث.

لقد جاءت في الرواية أحاديث أعطيت فيها الكلمة مند الوهلة الأولى إلى الشخصية لكي تروي بلسانها، والراوي عمل على نقل الكلام كما يفترض أنها تلفظت به دون أن يتدخل في مضمونه أو يعطينا إحساس بأن الكلام لا يعود إلى الشخصية، بل على العكس من ذلك سعى دائما لكي يثبت نسبة الكلام إلى الشخصية عن طريق صيغة الإسناد، أو تلك التدخلات التي نلمحها من حين إلى آخر على مستوى المتن، والتي يذكر فيها الراوي باسم الشخصية المتكلمة كقوله:" قال أبو هريرة "[46]. في حديث الحكمة أو قوله : " قال الراوي"[47]. في حديث الوضع أو قوله في حديث الحق و الباطل: " قال معن: فقلت " [48] في سياق الحديث.

اعتمد الراوي عدة إشارات من أجل الحمل على الاعتقاد بأن الخطاب يعود للشخصية كما أوردته من بينها الفعل حدث الدال على ملفوظ الحديث الذي سيرد لاحقا،إلى جانب النقطتان بعد الفعل قال، دلالة على أن النقل للخبر يتم بشكل مباشر، و لذلك نلاحظ طغيان ضمير المتكلم في السرد، يقول أبو هريرة في حديث البعث الأول :"جاءني صديق لي يوما وقال"[49] ثم قوله في نفس الحديث:"

ثم التفت إلى صديقي وهو يبكي أحر البكاء"[50]، وفي حديث الحكمة و هو يروي عن نفسه قائلا" تهت في بعض حياتي و ضللت السبيل"[51].

والشخصية في كل هذه الأقوال تنقل المنطوقات المتعلقة بها و الشخصيات الحكائية الأخرى كما تنقل الكلام الداخلي أو المونولوج:" ثم قال : أنت مجنون. فارتعت وانزعجت حتى ارتعدت واهتزت وخفت أن يكون ذلك حق اليوم أو الغد، فلما خشيت على عقلي قلت: لم يبق إلا أن أطلب النهاية"[52]، بحرية منحها لها الراوي في بداية الملفوظ.

لم يبدل الراوي جهدا للتعريف بالشخصيات في الرواية، بل جعلها تعرف بنفسها من خلال ملفوظاتها في الأحاديث التي ترويها، أو تكون مشاركة في أحداثها فنحن نستكشف شخصيات الرواية وهي تتكلم .

وقد كسر الراوي هذه القاعدة عندما أورد في حديث الكلب نعتا لكهلان:"- كان من صعاليك العرب و شداد لصوصها –"[53]، قبل أن يتنازل لها عن الوظيفة السردية. و وضع الجملة بين مطتين يحيل على وجود ذلك الراوي المتلبس الذي كان دائما يسعى إلى التخفي وراء الرواة المعلنين.

وفي الرواية أحاديث أخرى تعطى الكلمة فيها إلى الشخصيات لا تمارس أفعالا كلامية على مستوى الحديث فهي تنقل كلام شخصيات أخرى على لسانها، و هو ما نجده في حديث الغيبة تطلب فلا تدرك، حينما يروي كل من مكين بن قيمة السعدي و هشام بن أبي صفرة الهذلي عن ظلمة الهذلية قولها:" أول عهدي بأي هريرة يوم طرق علينا الدير..."[54]. ونجد إلى جانب الفعلين واللذين وظفا من أجل الربط بين المنطوقات نوعا آخر من الإشارات الدالة على نقل الكلام كاستعمال حرف الجر **عن** في حديث الطين من أجل خلق الاعتقاد بأن المصدر الناقل للخبر

بعيد عن الشخصية الرواية أبو هريرة، كما أننا لا نستطيع الجزم بأنه شخص واحد أو أكثر من خلال تلك الصيغة:"عن أبي هريرة أنه قال:"[55].

إن الراوي في هذه الرواية حاول دائما أن يظهر متنازلا عن الكلمة إلى راو يذكر اسمه ويوثق نسبه، هذا الأخير هو الذي يقوم بنقل أخبار الحديث وما يمكن أن تتضمنه من أقوال لشخوص القصة. وقد ربطت طريقة صياغة الأحاديث بين النظرة الفلسفية للإنسان ومكانة الحديث في الحضارة العربية الإسلامية، من خلال اعتماد أبي هريرة الشخصية الرواية والبطل في آن واحد لأن أبا هريرة كان أكثر الصحابة شهرة في نقل الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم .

المراجع:

1-J.P.Goldeustien, pour lire le roman. Initiation à une lecture méthodique de la fiction narrative, Edition J.Duculot. Paris Gembloux. 1983.2ene ed.
2-T.Todorov. Les catégories du récit littéraire,incommunication n=8. P148.
3-T.Todorov. Les catégories du récit littéraire, P148.
4- عبد الحميد عقار: وضع السارد في الرواية بالمغرب، دراسات أدبية ولسانية،عدد1.السنة الاولى.1985. ص 25.
5-Wayne Booth : Distance et point de vue. Traduit de l'anglais par Martine désormonts, P92.
6-G.Genette. Figures III, édition du seuil. Paris, 1972 P206, 207.
7- G.Genette.figures III ,P 208.
8-عبد العالي بوطيب، مفهوم الرؤية السردية في الخطاب الروائي بين الاختلاف والإتلاف. مجلة فصول. العدد4.المجلد الحادي عشر .1993.ص72
9-T.Todorov : la catégories du récit littéraire, P150.
10-T.Todorov : la catégories du récit littéraire , P150.
11-J.P Goldenlstein, pour lire le roman, P35.
12- محمود المسعدي"حدث أبوهريرة قال، ص 201.
13-المصدرنفسه، ص 201.
14 خالد لغربي: جدلية الأصالة والمعاصرة في أدب المسعدي (السند، حدث أبو هريرة قال..، مولد النسيان، السندباد والطهارة)،صامد للنشروالتوزيع ط.1.1994. ص 66، 67.
15- محمود المسعدي: حدث أبو هريرة قال... ص 203.
16-المصدرنفسه، ص 205.
17- خالد لغربي: وظيفة المحدث ودلالته في "حدث أبو هريرة قال ..."، مجلة الحياة الثقافية، عدد 53 تونس، 1989، ص 40.
18- محمود ألمسعدي: حدث أبو هريرة قال ... ص 90، 91.
19 -المصدرنفسه، ص 92.
20 -المصدر نفسه،ص50
21 -المصدر نفسه، ص 50
22 - المصدر نفسه ، ص 52
23 - محمد الهاشمي الطرابلسي : كتاب البكالوريا حدث أبو هريرة قال : لمحمود المسعدي دراسة متكاملة وتطبيقات ، دار شوقي للنشر،د،ت،ص 18.
23 - محمود المسعدي: حدث أبو هريرة قال... ص 96.

24 -المصدر نفسه، ص 97.
25-الكفناوي الماجري: من الثورة إلى الهزيمة، السعدي في"حدث أبو هريرة قال ..."، الشركةالتونسية للتوزيع . 1988 .ص 71.
26 - محمود المسعدي: حدث أبو هريرة قال... ص 103.
27 -المصدر نفسه، ص 102.
28-الخفناوي الماجري: من الثورة إلى الهزيمة، المسعدي في "حدث أبو هريرة قال..."، ص72.
29- محمود المسعدي: حدث أبو هريرة قال... ص 66.
30- المصدر نفسه، ص175.
31 -المصدر نفسه، ص175، 176.
32-المصدر نفسه، ص 176.
33- محمود المسعدي: حدث أبو هريرة قال... ص 176، 177.
34- المصدر نفسه، ص 177.
35 المصدر نفسه، ص 177.
36 - المصدر نفسه، ص179.
37- محمدالصالح الجابري: دراسات في الأدب التونسي، الدار العربية للكتاب، ط1، 1987، ص79.
38- محمود المسعدي: حدث أبو هريرة قال... ص 189.
39 - محمد الهاشمي الطرابلسي: كتاب البكالوريا،حدث أبوهريرة قال لمحمود المسعدي.دار شوقي للنشر والتوزيع.د ت. ص 36.
40 - محمد الصالح الجابري، دراسات في الأدب التونسي، ص 77.
41 - محمد نجيب العمامي: الراوي في السرد العربي المعاصر، رواية الثمانينات بتونس، ص39.
42 – جيرار جينيت: خطاب الحكاية، تمحمد معتصم. محمدعبد الجليل الازدي. مطبعة النجاح الجديدة.. ط1.1996 ص 177.
43 المرجع نفسه، ص 185.
44- G.Genette Figures III. edition du seuil. Paris. 1972. P192 .
45-المرجع نفسه، ص 192.
46- خالد لغريبي: جدلية الأصالة والمعاصرة في الأدب المسعدي (السند،حدث أبو هريرة قال، مولد النسيان، السندباد والطهارة)، ص34.
47- محمود المسعدي: حدث أبو هريرة قال... ص 201.
48 -المصدر نفسه، ص97.

49 -المصدر نفسه، ص 119.
50-المصدر نفسه، ص 49.
51 –ا لمصدر نفسه، ص 56.
52 - المصدر نفسه، ص 201.
53- المصدر نفسه، ص 213، 214.
54 – المصدر نفسه، ص 137.
55- المصدر نفسه، ص 176.